

التنظيمات الحرفية بالغرب الجزائري . تلمسان أنموذجا.

د. صبرينة دحماني¹

مقدمة

في إطار مفهوم التنظيم الحرفي الذي عرفه المسلمون عبر العصور يظهر جليا أن الحديث عنه هو نفس الحديث عن الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، هذا الذي يتصل اتصالا مباشرا بالحياة الاقتصادية والسياسية، إلا أن هذه قد اختلفت من مدينة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر.

فمن الملامح الرئيسية للمدن أنها ذات طابع تجاري حتى أن بعض الباحثين يعزو نشأة المدن أصلا إلى أنها مراكز للتبادل التجاري، إذ كانت تنشأ عند ملتقى طرق التجارة كما هو الحال عليه بالنسبة لمدن الغرب الجزائري خاصة منها مدينة تلمسان (طريق الذهب) فمراكزها هذه جعلتها تعرف تطورا ملحوظا في كل الجوانب ولاسيما الاقتصادي منه، إذ عرفت المدن الجزائرية خاصة والإسلامية عامة على غرار التنظيم السكاني تنظيما للحياة الاقتصادية وهذا ما يفسره التحول والتنظيم الاقتصادي الذي شهدته سياسة كل من الأمويين والعباسيين حين اهتموا بالزراعة كمصدر أساسي من مصادر الموارد الاقتصادية الثابتة، الذي تعتمد عليه المدن في حياتها ذلك الذي أدى إلى توسيع التجارة وتضخيم رؤوس الأموال من جهة وإلى تكثيف الزراعة والتوسيع في الصناعة من جهة أخرى وتجميع اليد العاملة في مجتمعات حرفية متميزة ومختلفة باختلاف المدينة ونوع النشاط فقد كانت بالجزائر حوالي 32 طائفة، على خلاف الدول المجاورة لها كتونس التي بلغت مجتمعاتها [83] طائفة.

ونجد هذه المجتمعات تشترك مع النسيج العمراني في الكثير من الآليات الإدارية التي تحكمها انطلاقا من المسؤولية الجماعية لكل نوع من الحرف على عناصرها، إذ كانت هذه منفصلة ومستقلة عن الإدارة العامة إلى حد ما فيما يخص شؤونها الداخلية ومراقبة إقليمها الحرفي، وساعدها على ذلك التدرج الدقيق الذي كان ينظم علاقات أفراد الحرفة الواحدة.

1- قسم علم الآثار، جامعة تلمسان.

حيث كان لهذه التجمعات منظمات خاصة تضمهم تشبه النقابات، رؤساء يعرفون باسم المعلي^(*)، يقومون بتنظيم العمل بين أفرادها الذين يدخلونها عادة في سن العاشرة أو الثانية عشر، هؤلاء الذين لن يخرجوا منها إلا وهم يحملون اللقب (المعلم)، وهذا النوع من النظام كان بمدن الغرب الجزائري شبه وراثي (أب عن جد) حيث لم يكن باستطاعة أي احد فتح ورشة حرفية دون قبول أعضاء المجموعة، تلك التي كانت تعين رئيسا من بين معلي الحرفة، يدعى 'أمين الحرفة'.

ينتخب من أهل الصنعة باقتراح يقدم لصاحب السوق المحتسب ومعه أمين ثاني بمثابة نائب للرئيس وأعضاء آخرون من أهل الصنعة، ووظيفته أن يكون وسيطا بين أهل الحرفة والمحتسب في كل ما يتعلق بشؤون الحرفة وحرفيها من قبيل الاتفاق على أسعار السلع والاختلاف في أمور الصنعة، وللأمين حكم شديد على الصناع فكان يطلعهم على مجموعة الأنظمة المهنية، وهو المسؤول أمام المحتسب عن أية مخالفه بالنسبة للأمانة المهنية.

كما عليه أن يتميز بسلوكه القويم وبتمكنه من الصنعة، إذ كان يقوم إلى جانب الوسيط بمهمة المراقبة على هؤلاء ويقضي في خصوماتهم (تنظيم العلاقات داخل الطائفة)، إلى جانب توطيد وتلطيف العلاقات الخارجية مع الطوائف الأخرى أو مع الدولة، وجمع الضرائب والمشاركة في شؤون المدينة العامة والدفاع عن حقوق أفراد المجمعات.

وتعدى ذلك إلى مراقبة أعضاء الحرفة، إذ لا يجوز لأحد دخول المدينة أو الخروج منها دون إشعار أمين الحرفة ومن هنا نستشف المهام التي كانت موكلة لهؤلاء من سلطات قضائية وتنفيذية تسمح لهم بالحكم في القضايا الداخلية للطائفة، وكذا ارتباطهم بالسلطة، ذلك بتدسيقهم مع المحتسب في مراقبة الأسواق والمكايل وجودة السلع وسلوك الحرفين تجاه الزبائن.

إضافة إلى 'أمين الحرفة' هناك عنصر إداري آخر هو 'أمين الأمناء'⁽¹⁾ الذي ينتخب من بين مجموع الحرف هذا الذي كان يتنافس عليه الأعيان، حيث كانت تنفرد به عائلات لمدة سنوات وقرون، أما الدور الذي يقوم به أمين الأمناء فهو عقد المصالحات بين أفراد الحرفة الواحدة وحتى مع الحرف الأخرى وبالتالي ضبط علاقات العمل بين

* تطلق على كل من يحسن الصنعة ويتحصل على الاجازة، كشهادة اعتراف بكفائته

1- موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص 86.

المتعاملين من الصنف الواحد والأطراف الخارجية لتسجل في النهاية في سجل (عوائد السوق)، وكذا التنسيق مع المسؤولين في جمع الغرامات من أصحاب الحرف المتنقلة كما كان يساهم في تحرير القوانين المتعلقة بالسوق والتنسيق بين مختلف الطوائف عن طريق الاجتماع بين أمنائها والسلطات المحلية، وكان أداء ذلك بكل نزاهة لأن هناك بعض المراجع تذكر أنه قد كان للأمناء شطرتهم الخاصة وسجونهم يعني هذا أنهم هم كذلك كانوا مراقبين.

وبغض النظر عن هؤلاء قد كان هناك أشخاص من جميع الطوائف الحرفية، أوكلت إليهم أداء مهام كل حسب اختصاصه، في شكل مراتب متدرجة بالشكل التالي:

1- الشيخ: ينتخب وهو لا يعد انتخاب رسمياً ما لم يحضر الشيخ المنتخب وأعضاء الهيئة الاختيارية إلى المحكمة ويقرون أمام القاضي بهذا الاختبار ويقوم القاضي بتنصيب الشيخ رسمياً، وبإصدار حجة موقعة تسجل في سجل المحكمة⁽¹⁾ وقد شغل هذا المنصب في عهد من العهود في بعض الولايات العثمانية بأشخاص كانت تعيينهم الدولة إذا كان يتم ذلك عند اجتماع المسلمين وغير المسلمين، ليتم انتخابه فيما بعد من ضمن المجموعة، وبعد أن أصبح غير المسلمين يعتمدون على تنظيم أنفسهم داخل تنظيمات مستقلة خاصة بهم قدموا على انتخاب شيخ خاص بهم.

2- الصبي أو المبتدئ: هو الولد الحديث السن الذي يلتحق بالحرفة ولا يعرف عنها شيء، وعادة ما يكون صبي قاصر (لا توجد سن معينة للالتحاق بالمبتدئ بالحرفة) هذه الصفة ليست جائزة في كل الحرف كمهنة الطب، حيث يكون المبتدئ بالغ عاقل ويطلق عليه لقب التلميذ، كما أن هناك بعض الأشخاص يلجؤون إلى تغير حرفهم ويبدءون تعلم مهنة أخرى وهم في سن متقدمة. لذا فاستعمال كلمة المبتدئ في هذه المرحلة هي أدق من كلمة صبي، ولما كان معظم شيوخ هذه المرحلة هم من صغار السن فإن كلمة صبي هي لأشمل⁽²⁾.

فعندما يلتحق الصبي أو المبتدئ بالمجمعات يجري احتفال يحضره بعض أعضاء الحرفة، تقرأ فيه سورة الفاتحة ويربط المبتدئ مع معلمة، لذا يطلق على هذا الاحتفال

1- عيسى سليمان أبو سليم، الاصناف والطوائف الحرفية في مدينة دمشق خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000م، ص: 97.

2- نبيل السيد الطوخي، طوائف الحرف في مدينة القاهرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر 1841.1890، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009، ص: 29.

بالالتحام، أما المدة التي يمضيها المبتدئ في تعلم الحرفة متفاوتة بين منطقة وأخرى، فمثلا في مدينة تلمسان يمضي مدة تتراوح بين عامين إلى سبعة أعوام أما في مدينة معسكر ومستغانم فيمضي المبتدئ مدة ألف يوم ويوم، أما في مدينة وهران فان تعلم الحرفة لا يحدد في مدة زمنية وإنما على مقدار تقدم المبتدئ في التعلم، وخلال هذه المدة لا يستطيع المبتدئ أن يغير معلمه لأنه لن يقبل عند معلم آخر إلا في ظروف خاصة يتدخل فيها شيخ التنظيم لإدخاله في خدمة معلم آخر.

إذ يتعلم الصبي من معلمه أصول الحرفة ولا يبذل المعلم جهدا في تربيته أخلاقيا، وليس عليه خلال هذه الفترة أية التزامات مالية ثابتة يقدمها إلى المبتدئ، إلا أن في بعض المناطق يتكفل المعلم بالمصروف اليومي للمبتدئ، وفي مناطق أخرى كمدينة تلمسان يتوجب على الصبي إحضار وجبته اليومية، وعندما يتعلم المبتدئ أصول الحرفة يسمح له بانجاز بعض الأعمال البسيطة بتوجيه من معلمه.

3- الأجير: بعد أن يقضي الصبي فترة من الزمن يتعلم خلالها أسرار الحرفة وتقاليدها يرتقي إلى درجة العرفاء مع تنظيم احتفال له مع معلميه بحضرة بعض الجموعات الحرفية، ويفتح بقراءة الفاتحة وفيه يفرض المعلم على الصبي مجموعة من المبادئ الخلقية التي تغرز فيه الإيمان، ويلقي مجموعة من النصائح ويذكر بعض عادات الرسول(ص).

لينتهي الاحتفال بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، وفي بعض الأحيان يكون الحفل مع المعلم مصحوبا بوليمة.

وغالبا ما يكون الأجير بالغ عاقل يتولى إدارة شؤونه الخاصة ويستطيع أن ينتقل في العمل من معلم إلى آخر وليس لمعلمه ولاية عليه⁽¹⁾. كما أن له حق اختيار طريقة تقاضي أجره، فقد يتقاضى أجره يوميا، أو يختار العمل بالمناوبة أي لا يقبض أجرته اليومية كاملة، وإنما يتقاضى ثلثها والباقي يقتطعه المعلم لتغطية مصاريف الأجير اليومية، كما أن هناك طريقة فرضتها طبيعة العمل حيث من الأفضل لكل من الأجير والمعلم أن يتم تحديد الأجر وفق الإنتاج

وإضافة لما تقدم نجد أن أجرة العامل تزداد بزيادة مهارته لذا نجد الأجير يسعى جاهدا لإتقان حرفته في سبيل تحقيق غرضين الأول الحصول على اجر أعلى، والثاني ليكتسب

1 - نبيل السيد الطوخي، المرجع السابق، ص:32.

حق الارتقاء إلى درجة الصانع بعد أن يدخل امتحان أمام الهيئة الاختيارية فإذا اجتاز الامتحان بنجاح عندئذ يقام احتفالاً يرتدي خلاله الأجير الأول اللباس الخاص بأهل تلك الحرفة، أي يسمح له بارتداء السروال والبشمال أو الصدرية ثم يشدون على خصره بالشد أو يربطون عليه المززر، وفي حفل الشد هذا يدخل الأجير سياج الطائفة بعد أن يحزم في هذا الاحتفال بحزام الطائفة على يد النقيب بحضور الشيخ وقبل بدأ الاحتفال يطلب النقيب من زملاء المرشح تصفية ما بينهم وبين الأجير من منازعات، ويفتح الحفل بقيام كل عضو بقراءة الفاتحة ويهدي كل منهم الشيخ عودة أخضر، ثم يقوم المرشح بمناشدة الحشد أن يطلبوا من الشيخ بأن يستجيب لمعلمه وتبدل عضويته بالطائفة، فإذا لم يعترض من الحشد أحد، يتوضأ ويصلي ثم يعقد من حزامه أربع عقد، واحدة واحدة لمعلمه والثانية للشيخ والثالثة للطائفة والرابعة للإمام.

ولما كان منهج الفتوة أجاز شد أهل الذمة نجد غير المسلمين كانت تراعى عاداتهم في حفل الشد فالمرشح المسيحي يكتفي شده بالحزام وتلاوة فاتحة الإنجيل، أما اليهودي فتتلى عليه الوصايا العشر وعادة ما يتخذ هؤلاء في الطوائف المشتركة أستاذ أو معلمين (أبا بالكار) من المسلمين.

أما إذا لم يجري شد الأجير على الرغم من مهارته في الحرفة فتبقى أجرته منخفضة.

4- الصانع: هو الأجير الذي أتقن حرفته واجتاز امتحانا أمام هيئة التنظيم (هيئة اختيارية) بنجاح ونظم له حفل الشد كما أسلفنا، إلا أنه لم يصل على درجة المهارة التي يتمتع بها المعلم، ويطلق عليه في بعض المناطق ب (القلبة)، وعندما يصل العامل إلى هذه المرحلة، يعمل كصانع مع المعلم بموجب عقد يحدد فيه مدة العمل والأجرة، كما يتفق على الكيفية التي يتقاضى بها العامل أجرته⁽¹⁾.

إن دخول العامل في عضوية التنظيم وحصوله على درجة الصانع ترفع من قيمة الأجور التي يتقاضاها كما أن وضعه القانوني يتغير ويصبح مسؤولاً عما يستلمه من حاجيات وأغراض، وهو ملزم بردها⁽²⁾ لذا نجد أن بعض الحرف اشتطت على الصانع إحضار

1 - عبد الكريم رافق، مظاهر في التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني بحوث في التاريخ.....، الهيئات الحرفية والمدينة، مجلة المورد، ع3، بغداد، 1972، ص:167.

2- عطا الله محمود، وثائق الطوائف الحرفية في القدس في القرن السابع عشر من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية، ج1، مركز التوثيق والمخطوطات جامعة النجاح، 1991-1992، ص:167.

كفيل يكفله في الذمة والمال عند شيخ السوق، وإذا لم يستطع الصانع إحضار كفيل فإنه يمنع من ممارسة تلك الحرف⁽¹⁾.

يبدو أن مدة بقاء الصانع في هذه المرحلة متفاوتة من منطقته إلى أخرى كما أنها مختلفة من صانع إلى آخر حسب الاحتراف في الحصول على درجة المعلم (الأسطى) والاحتراف هذا لم يكن محددا بالمهارة بل تعدى إلى ما يتمتع به من حسن الأخلاق التي تؤكد لها علاقته الجيدة مع زملائه وعنايته الأبوية بالصبيبة المبتدئين وتعامله الودود والصادق مع الزبائن وان ينجز أي عمل يطلبه منه معلمه بإتقان. وغير ذلك من الصفات والمزايا وإضافة لذلك يلزمه أن يمتلك رأس مال يمكنه من فتح دكان، مع توفر دكان فارغ في تلك الحرفة. وعند توفر كل هذه المتطلبات يقوم معلمه (الأسطى) بإخبار الكتخدا أو النقيب بان الصانع (القلفه) وجد لنفسه دكانا، فيحدد يوم الاحتفال، ويراعى أن تكون احتفالات الترقية هذه في موسم الربيع.

ينتهي احتفال الإجازة هذا ويدفع المجاز مبلغا من المال ليحصل على سند الإجازة من الشيخ، هذا السند هو بمثابة وثيقة تجيز له ممارسة الحرفة.

5- المعلم: هو الشخص الذي بلغ ذروة المهارة في عمله وأصبح له الحق في أن يستقل بعمل خاص به بعد أن حصل على سند الإجازة الذي يستخدمه خاصة عند تغير محل إقامته لكي لا يخضع لاختبار آخر يثبت به مهارته⁽²⁾.

وفي ضوء العرف السائد بين أرباب الحرف نجد أن المعلم المتمرس يستطيع المشاركة في إدارة شؤون الحرفة، فعليه نستطيع القول أن المعلمين المتمرسين يشكلون قاعدة هرم التنظيم الهيكلي للطائفة الحرفية

كما أن هذه الطوائف لها حقوقها كما هو الحال عليه بالنسبة للواجبات التي يقوم بها وسط المدينة.

ومن هنا فإن المجمعات الحرفية كانت لها أهمية اقتصادية كبيرة على خلاف السياسية⁽³⁾، لكن هذا لا يعني عدم مشاركتهم في المجالات السياسية سواء مؤيدين للسلطة أو معارضين لها.

1- المرجع نفسه، ج1، ص167-183

2- المرجع نفسه، ج1، ص62

3- لويس ماسنيون، الهياكل الحرفية والمدنية، مجلد المورد، ع3، بغداد، 1972، ص18

ومن هنا فقد ساربت المدينة التطورات المتتالية والمتنامية للمجمعات والطوائف الحرفية فاهتمت بإنشاء الأسواق والمنشآت التجارية التي تكفي فكرة تصنيف التجارات على اختلاف أنواعها، باعتبار الأسواق مراكز تبادل السلع وكذا مراكز لتبادل الأفكار والشائعات لما يحدث من مناقشات في أمور السياسة والاقتصاد وغيرها مما يبرز أهميتها كمراكز اتصال، وبالتالي فهي تعد من متطلبات الجماعة الإسلامية، وهي أحد الركائز الاقتصادية لأن المدن «تتفاضل بالأسواق وكثرة الأزواق ونفاق الأسواق من تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة» ومن ثم فإن الازدهار الاقتصادي ينعكس على ازدهار الأسواق وعمارتها.

هذه التي كانت في بدايتها الأولى عبارة عن ساحة من الأرض غير مسقوفة، خالية من البناء مستغلة دون دفع أي أجر، وكان نظامها قائم على سنة المساجد فمن سبق إلى موضع فهو له حتى يفرغ منه.

ومن هنا قد وجدت الأسواق الموسمية كتلك التي كانت للعرب قبل الإسلام وضممت فيما بعد، في حين نجدها لاتزال قائمة إلى اليوم ببعض المدن الجزائرية (أسواق الوعادي) وأخرى أسبوعية كسوق الاثنين الأحد الجمعة وغيرها.

وفي الوقت الذي بدأت فيه السلطة تنظر إلى الحرف والحوانيت المستغلة من أجل ذلك كمصادر دخل كان لا بد من وجود مؤسسات إدارية تتولى الإشراف على تنظيمها، ويتمثل ذلك في وظيفة المحتسب(*) هذه الوظيفة التي تطورت تطورا واضحا عكسته مصادر الحسبة في التراث الإسلامي باعتبارها مؤسسة إدارية هامة في المدينة الإسلامية تعددت مهامها واتخذت الحرف بالحوانيت والأسواق وكل المنشآت التجارية في المدينة الإسلامية اتجاهين رئيسيين من ناحية نوعية الحرف والتكوين المعماري لها (فضاءات ممارستها وعرضها).

فكانت عبارة عن مجموعة من الحوانيت تطل على ساحة مكشوفة في الوسط وظهرها إلى الخارج، وتعلو هذه الحوانيت وحدات سكنية كانت تؤجر لمن يرغب في السكنى في تصميم يشبه «الاجورا» في المدن اليونانية. وهذا ما كانت عليه أسواق الكوفة عبارة عن حوانيت سقوفها أزاجا معقودة بالآجر والجص وصنفها حسب عروض التجارة التي تعرض فيها حيث «جعل لكل باعة دارا وطاقا». ويبدو أن هذا النمط من البناء هو الذي كانت عليه

* وظيفة وجدت منذ عهد الرسول ممثلة في «عامل السوق» لكن مهامها في عهد الرسول والصحابة اقتضت على الإشراف على نوعية المبيعات، والتأكد من أن المعاملات في السوق تتم حسب المبادئ والقيم الإسلامية.

القيساريات التي أنشئت في الفسطاط في العصر الأموي، وهذا النوع من المنشآت التجارية يفي بحاجة التجار حيث يوفر لهم الحوانيت الآمنة، والمساكن التي تعلو حوانيتهم كانت متوفرة لمن يرغب في السكنى قريبا من تجارته، خصوصا إذا كان هؤلاء التجار غرباء من بلاد أخرى، كما كان اليهود يتلمسان الذين تمركزت تجارتهم ومساكنهم بالقسم الغربي الجنوبي من المدينة (ينظر الشكل رقم 1) فقد تناسب هذا التخطيط مع ازدحامها وتلاصق مبانيها وضيق شوارعها الفرعية، وعدم توفر مساحات كبيرة خالية-لأنها تلاءمت مع طبيعة التغير المستمرة نتيجة تغير الحاجات وطبيعة الحياة من عصر إلى آخ، حيث يمكن إنشاؤها في أي قطاع ليتناسب تخطيطها مع طبيعة الحياة التي تحرص في المقام الأول على تحقيق الخصوصية بعيدا عن فضول الآخرين في إطار القيم الإسلامية التي تمنع كشف الحرمات.

وقد تنوعت المنشآت التي سارت على هذا النمط من التخطيط فمنها القيساريات والوكالات والخانات والفنادق وغيرها من المنشآت التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالأوضاع الاقتصادية والسياسية لحياة المدينة.

وقد تحكمت اعتبارات متعددة في توزيع الحرف حتى لا يحدث أي ضرر لأصحابها فقد كانت صناعة تحتاج إلى وقود نار كالخباز (الأفران) والحداد فكان على المحتسب أن يبعدهم عن العطارين والبرارين لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار وإذا كانت نوعية الحرف والسلع تتحكم في مواضع الأسواق داخل المدينة فإنها في بعض الأمثلة انحدرت بها إلى أطراف المدينة أو خارجها، فقد منع القصابون من الذبح على أبواب حوانيتهم وكان عليهم أن يذبحوا في المذبح الذي يوجد غالبا خارج المدينة، وارتبط بذلك قرب أسواق اللحم من أبواب المدينة الخارجية لتسهيل نقل اللحم من هذه المذابح إلى حوانيت القصابين دون الحاجة إلى عبور شوارع المدينة في اتجاه المركز وكذلك كان يمنع جلابو الحطب والتبن وأحمال الحلفا والشوك ونحوهم من دخول السوق ووقوفهم في العراض مع تجار الخضروات والفاكهة حيث كانت دكاكينهم في هذه العراض، فإذا لم تتوفر العراض يجوز لهم الدخول لحاجة إليهم وكانت صناعة الفخار من الصناعات التي يؤثر وجودها وسط منازل العامة ومن ثم وجدت في أطراف المدينة.

وكذلك كانت بعض الحرف ترتكز في الأطراف بالقرب من لأبواب كالتعدين وغيرها من المواد ثقيلة الوزن وكبيرة الحجم التي يؤثر نقلها إلى الداخل إلى عرقلة حركة المرور في الشوارع كما هو الحال في مركز مدينة تلمسان (ينظر الشكل رقم 2)، وقد انعكس هذا التوزيع للحرف على مسميات الأحياء، ولعل خير مثل على ذلك مدينة تلمسان التي سميت

أحيائها بأسماء نوعيات الحرف والصناعات كالححاسين والصباعين الصغارين الصاغة والفخارين وغيرها، ونظرا لتشابه الأسواق وإتباعها القواعد نفسها بصفة عامة فقد تكررت مسميات الأسواق فيها وهذا لحاجة السكان المتزايدة في كل المناطق أو إلى احتمال تغير الحرف من فترة إلى أخرى، وكان لهذا تأثيره في توزيعها على مخطط المدينة وذلك بوضع الحرف التي تحدث الانزعاج أو الدخان أو الروائح الكريهة في الحدود، بينما الأخرى داخل ووسط النسيج العمراني، كما أن للامتدادات العمرانية اثر في توزيع الحرف، وهي حاليا تعطي فكرة أثرية عن طبيعة الحرف ووضعيته من خلال تفسير مراحل الامتداد العمراني للمدينة أو من خلال دراسة ما بقي منها أو من الناحية الحضارية عند تقييم التخطيط المادي للمدينة الإسلامية وارتباطه بحياة المجتمع داخلها، وهذا من بين القضايا التي عملت الأحكام الفقهية بمعالجتها (الحرف الحوانيت والأسواق)، بل إن هذه النوعية من المنشآت تمثل أقصى درجات الضرر في هذا المجال .

فلما كانت ممارسة الحرف في أماكن ومراكز يقصدها أعضاء المجتمع موجوده داخل حومات أو حارات ضيقة في مقابل المنازل الخاصة كأفران مدينة تلمسان (فران حارة الرمي، فران العبد...) حتما سيكشف تلك الحرمات سواء لأصحاب الحرف أو لمن يقصدونهم بصفة مستمرة، لذا كان من الأجدر تموقعهم على الطرق العامة حتى يصل إليهم العامة ولا يتعرضوا لشروط الارتفاق بالطرق الخاصة حيث يقتصر استخدام هذه الطرق في الغالب على أصحابها باعتبارها ملكية خاصة مشتركة بينهم تحقيقا لمبدأ الخصوصية، وتجنبنا للتعرض للكشف ومن ثم أصبحت الشوارع الكبيرة هي النقاط التجارية الرئيسة لأهم الحرف اليدوية كشارع باب الحديد بالجزء الجنوبي من مدينة تلمسان الذي تفرع منه الفحامين والححاسين والصفارين، إلى جانب هذا قد ظهر ما يسمى بالتريبعات^(*) كتربيعة ندرومة، وهذا كله حتى يسهل الارتفاق بالامتداد في الشوارع الجانبية دون البعد عن الشارع الكبير ومن هنا فقد خضعت الأسواق لإشراف المحتسب ومساعديه من الأمناء المتخصصين في مراقبة كل الحرفين والذين هم بمثابة النقيب، حيث وجدت لهم مقار في المدينة قريبة من أماكن ممارسة الحرف لمراقبتها حيث كان الحرص شديدا على تأمينها خاصة تلك الممتدة على جوانب الشوارع ففي بعض المدن

* التريبة : عبارة عن ساحة سوق صغيرة وسط المدينة نسبة لشكل مخططها المائل لشكل المربع، كما يمكن ان تعني وضعية القرفصاء في بعض اللهجات المحلية خاصة بالمغرب الأوسط وربما يراد منها تلك التي تخص كل قبيلة او عرش في ساحة السوق كما هو الحال في وادي ميزاب، ينظر قادة لبت، تخطيط المدن العتيقة وسبل المحافظة عليها مدينة ندرومة أنموذجا، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة، ج1، سلسلة اصدارات جمعية الموحدة، 2011، ص:511.

فصل بين كل مهنة وأخرى بحواجز وأنشئت لبعض المناطق أبواب مختلفة تؤدي إليها يسهل غلقها وفتحها ويتحكم في الدخول فيها كسوق التجار بمدينة فاس تلك التي تحتوي على اثني عشر بابا ويعترض مدخل كل باب سلسلة كيلا تتمكن الخيول والحيوانات الأخرى من الدخول، ليعمد هؤلاء إلى إعطاء نفقات لحراس يتجولون ليلا مع فوانيس وكلاب لتأمين سوقهم وإضافة لتتولى حتى السلطة مسؤولية حراسة الأسواق، ومن المدن ما خصص فيها حراس للأسواق بالإضافة إلى رجال الشرطة الذين كانت مهمتهم توفير الأمن بالمدينة كلها، هذه التي نشأت عنها وظيفة الحسبة التي أصبحت نظام رقابي للسوق وحالة مطلوبة.

ومن هنا أصبح نظام الحسبة إطارا رقابيا متخصصا ومتكاملا يستوعب الأمور التجارية كافة بهدف إقرار الحقوق وإنصاف الناس ومنع الضرر المقصود والإساءة المتعمدة وحماية السوق من كل أشكال العبث والفوضى والتكتل الذي يراود به ومنه محاصرة المشتري وإرغامه على الشراء بالسعر التحكيمي المفروض وتولى وظيفة الحسبة «المحتسب» الذي حتمت عليه ضرورة القيام بأعباء وظيفته الاستعانة بعصبة خيرة من الأعوان والغلمان «الصبيان»، وكان هؤلاء الأعوان والغلمان ينالون أجورا على عملهم ويخضعون للتدريب على أعمالهم وحدود دارسة وظائفهم، وغالبا ما اختار المحتسب إلى جانب ذلك مجموعة من «العرفاء» من أصحاب المهن والحرف المختلفة ليكونوا له عونا في كشف التلاعب ورصد الغش وحصر المخالفات في نطاق الحرف والمهن التي يمثلونها مآدى إلى تصنيف التجارات والحرف في الأسواق.

كما أن هذه النقابات تختلف في نشاطها عن النقابات في المدينة الأوروبية حيث كانت أدوات بيد السلطة تعزز بها سيطرتها السبق يتضح أن الأصناف والحرف كتكوينات اجتماعية مهنية نشأت وتطورت بتطور حياة المجتمع، وهكذا يتضح من نشأة النقابات الإسلامية أنها تختلف عن النقابات الأوروبية حيث أن النقابات الإسلامية تضم أفرادا من مختلف الطوائف في جو من التسامح الاجتماعي والفكري على عكس ما حصل في الغرب بالإضافة إلى أن للنقابات الإسلامية حياة روحية ومثل خلقية في قوة تهييبية مهنية في الوقت نفسه ولم تقتصر على المهنة ومن هنا كان للنقابات الإسلامية دور بارز في الحياة الاجتماعية لمجتمع أصحاب الأصناف والحرف بصفة خاصة ومجتمع المدينة على وجه العموم.

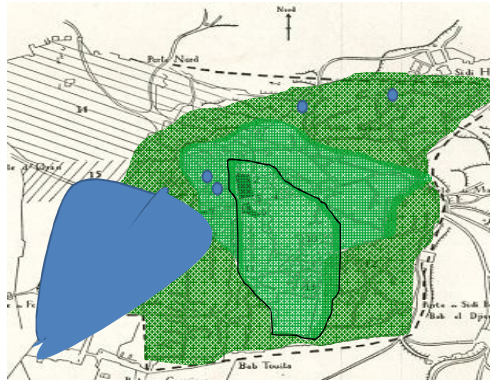
فقد كان لهذه النقابات نظمها وتقاليدها التي تظهر في تحديد مراتب الحرفيين ونظام الترقى في الحرفة وما يصحب ذلك من احتفالات اجتماعية تقليدية بالإضافة إلى قواعد تنظيم

العمل والرعاية الاجتماعية¹ والتي تنوعت بتنوع الأصناف والحرف وطبيعة كل منه، فتذكر بعض المراجع في هذا الصدد على أن الحمالين مثلاً كانوا كالأخوة فإذا مات أحدهم وترك طفلاً تكفلوا جميعاً بالمرأة إلى أن تتزوج مرة ثانية إذا رغبت في ذلك واهتموا بعطف وحنان بالأولاد إلى أن يبلغوا السن التي تمكنهم من القيام ببعض الأعمال، وإذا تزوج أحد الحمالين أو ولد له دعا جميع أصحابه إلى وليمة فيعطيه كل واحد منهم هدية مقابل ذلك ولا يمكن لأحد أن يمارس مهنة حمال قبل أن يدعو جميع أصحابه إلى وليمة وإذا لم يفعل فلن يتقاضى أكثر من نصف حصة الآخرين، وقد حصل هؤلاء الحمالون من الملوك على امتياز إعفائهم من أي ضريبة أو تكليف⁽²⁾، ولا يؤدون لأصحاب الأفران مقابل خبز عجينهم وإذا ارتكب أحدهم جرماً يعاقب عليها بالإعدام فإنه لا ينفذ عليه الحكم أمام الجمهور ويشغل هؤلاء الناس وهم لابسون ملابس قصيرة ذات لون واحد ويلبسون خارج أوقات العمل ما يشاؤون وبالجمله فإنهم أناس يتحلون بالاستقامة والأخلاق الحسنة ومن مظاهر الحياة الاجتماعية لأصحاب الحرف في المدينة الإسلامية ذلك العرض الفني التي تعرض فيها كل حرفة روائع بضائعها ومهارات أبنائها في موكب خاص تشارك فيه كل الحرف ويحدد له يوم معين من السنة يكون بمثابة عيد لأهل الحرفة مثلما كان يحدث في بغداد في أواخر عهد العباسيين حيث كانت الأصناف تتقدم في موكب حافل، كل حرفة تحتفي بنموذج لصناعتها في موكب.

1- صلاح احمد هويدي، الحرف والصناعات في عهد محمد علي، تقديم عمر عبد العزيز عمر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2003، ص142

2 - المرجع نفسه، ص136

الشكل رقم 1: توزيع الفئة اليهودية بتلمسان



الشكل رقم 02: يبين توزيع الحرف والصناعات التي كانت منتشرة بمدينة تلمسان، نقلا عن سيدي محمد نقادي

